حول مواقع الاستعارة الأصلية من الإعراب

قد يظن أو يتصور أن الاستعارة الأصلية تأتى فى أسماء الأجناس أينما وجدت فى الكلام، وفى أى موضع منه، والواقع خلاف ذلك؛ فقد حدد البلاغيون لها مواضع معينة باعتبار ملاءمتها للسياق، وإفادتها المعانى المنوطة بها وهى المبتدأ، والفاعل، والمفعول به، والمجرور بالحرف، والمجرور بالإضافة، وفى مقدمة من حددها الشيخ عبد القاهر الجرجانى، فقد ذكر وهو بصدد التفريق بين التشبيه المحذوف الوجه والأداة، والاستعارة الأصلية هذه المواضع فقال: « ... ويكون لها - أى للاستعارة- هذا الصنيع حيث يقع الاسم المستعار فاعلا، أو مفعولا، أو مجرورا بحرف الجر، أو مضافا إليه كقولك بدا لى أسد، وانبرى لى ليث، وبدا نور، وظهرت شمس ساطعة، وفاض لى بالمواهب بحر كقوله:

وفى الجيرة الغادين من بطن وجرة غـــزال كحيـــل المقـلتين ربيب(١)

والمفعول كما ذكرت من قولك رأيت أسدا، والمجرور نحو قولك لا عار إن فر من أسد يزأر، والمضاف إليه كقوله:

يا ابن الكواكب من أئمة هاشم والـــرجح الأحســـاب والأحلام(٢)

ويتابع الشيخ عبد القاهر كلامه قائلا: «وإذا جاوزت هذه الأحوال كان اسم المشبه مذكورا، وكان مبتدأ، واسم المشبه به واقعا فى موقع الخبر...»(٣).

وقد كرر ذكر هذه المواضع فى مكان آخر وزاد عليها المبتدأ.

واضح من عبارته الأخيرة «وإذا جاوزت هذه الأحوال إلخ» أن الاستعارة لا توجد إلا فى هذه المواقع لا تتعداها بحال، وقد تبع الشيخ عبد القاهر فى تحديد هذه المواضع الإمام فخر الدين الرازى فذكر أن الاسم المستعار لا يمكن وقوعه خبرا كما فى قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً ﴾ [المائدة: ١١٤] فالعيد

(١) بطن وجرة اسم مكان تكثر فيه الغزلان، و(ربيب) أى مربى.
ينظر هامش أسرار البلاغة: ٢٤٢ تعليق الشيخ محمود شاكر.
(٢) أسرار البلاغة: ٢٤٢.
(٣) المصدر نفسه: ٢٤٣.

ليس بمستعار لوقوعه موقع الخبر وقوله تعالى: ﴿ .. وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٦]

فالسراج ليس بمستعار لوقوعه حالا بعد تمام الكلام، بل يكون المستعار - كما قال - فاعلا، أو مفعولا، أو مبتدأ، أو مضافا إليه، أو مجرورا[١].

ومعنى هذا أن الاستعارة لا تتجاوز هذه المواضع، ولا تخرج عن هذا النطاق.

وقد وجدت فى أمثلة الاستعارة التى ساقها صاحب لسان العرب بعض الاستعارات التى خرجت عن هذا الحيز، وتجاوزت هذا النطاق وسيجىء ذكرها - إن شاء الله - قريبا -.

استعارات جاءت فى لسان العرب موافقة لهذه المواقع المحددة:

رأينا أن الكثرة الكاثرة من الاستعارات التى أوردها صاحب لسان العرب جاءت موافقة لهذه المواقع المعينة، وقد يكون من المفيد أن أذكر هنا طرفا من أمثلتها التى سلفت ليسهل الإلمام بها، والوقوف عليها.

أولا - الفاعل:

من الاستعارات التى وقعت فاعلا ما جاء فى قول الشاعر:

إذا لم يكن إلا القتاد تنزعت مناجلها أصل القتاد المكالب

استعار المناجل لأسنان الإبل الحادة.

ومنها: ما جاء فى قول ابن عوف لعمر - رضى الله عنهما -: يحضرك غوغاء الناس، استعير الغوغاء، وهو الجراد حين يخف للطيران للسفلة من الناس، والمتسرعين للشر.

ومنها ما جاء فى حديث حنين: انطلق جفاء من الناس إلى هذا الحى من هوازن، استعير الجفاء، وهو ما يقذفه السيل من الزبد، والأقذاء، والأوساخ، لشرار الناس وحثالتهم.

ثانيا: المفعول به:

ومن الاستعارات التى وقعت مفعولا به ما جاء فى قول عثمان - رضى الله عنه -

---

(١) ينظر نهاية الإيجاز..: ٨٦، ٨٨.

: وجاوزت أسنان أهل بيتى، أى طال عمره عن أعمار أقربائه، استعار الأسنان الموجودة بالفم، لأعمار الناس، وعليه تكون السن مستعارة للعمر.

ومنها ما جاء فى الحديث: إياكم ومشارة الناس؛ فإنها تظهر العرة.. استعيرت العرة وهى القذر، وعذرة الناس للمساوىء والمثالب.

ومنها ما جاء فى قول الشاعر:

فأجمع أجلاسا شدادا يسوقها إلـــىَّ إذا راح الـرعـــاء رعائيا

استعار الأجلاس، وهى الصخرات الشداد للنوق القوية.

ومنها ما جاء فى قول عمر – رضى الله عنه –: لا أقلع عنه حتى أطير نعرته، استعار النعرة وهو ذباب صغير يدخل أنف البعير، أو الحمر، أو الخيل للكبر والأنفه[1].

ثالثًا: المجرور بالحرف:

ومن الاستعارات التى جاءت مجرورة بالحرف ما جاء فى قول بعضهم: إنك لست من ذوائب قريش، استعيرت الذوائب، وهى جمع ذؤابة – الشعر المضفور أعلى الرأس –للعز، والشرف، والرفعة.

ومنها ما جاء فى قول الشاعر:

ولكن ما لى غاله كل جفنة إذا حان ورد أسبلت بدموع

استعار دموع العين للدسم الذى يسيل من الجفنة.

ومنها ما جاء فى قول الشاعر:

من للجعافر ياقومى فقد صريت وقد يستعار لذات الصرية الحلب

استعار الجعافر وهى الأنهار للنوق الكثيرة اللبن.

ومنها ما جاء فى الحديث: أعلنوا النكاح واضربوا عليه بالغربال، استعار الغربال للدف.

رابعا: المجرور بالإضافة:

ومن الاستعارات التى جاءت مجرورة بالإضافة ما جاء فى الحديث: ويل لأقماع

---

(١) هذه الاستعارات سبق بيانها، ويمكن الرجوع إليها لمن أراد مزيدا من الإحاطة بها.

القول ويل للمصرين، استعيرت الأقماع التى تفرغ فيها السوائل، ولا يبقى فيها شىء، لمن يستمعون القول، ولا يتبعون شيئًا منه.

خامسًا: المبتدأ:

لم أظفر فى لسان العرب – قدر جهدى – باستعارة واحدة وقعت مبتدأ قارا فى مكانه، ولكنى وجدت استعارات وقعت مبتدأ مؤخرا.

فمن ذلك ما جاء فى حديث بدر: ما قتلنا أحدا به طعم، ما قتلنا إلا عجائز صلعا[1] استعير الطعم من المذوقات للقيمة، والقدر، والوزن أى ما قتلنا إلا من لا وزن له، ولا قدر، فالاستعارة فى كلمة (طعم) وهى مبتدأ مؤخر.

ومنها ما جاء فى قول الشاعر:

زمان على غراب غداف فطيره الشيب عنى فطارا

استعار الغراب للشعر الأسود، وغراب مبتدأ مؤخر.

ومنها ما جاء فى قول الشاعر:

ألا ما لنفس تموت فينقضى شقاها ولا تحيا حياة لها طعم

وقد اتسع نطاق الاستعارات التى ذكرت فى لسان العرب، فتجاوزت المبتدأ المؤخر إلى ما أصله المبتدأ، وقد وجدت ذلك فى صورتين:

إحداهما: وقعت الاستعارة فيها اسما لليس مؤخرا، كما فى قول الشاعر:

وبعض القول ليس له عناج كسيل الماء ليس له إناء

استعار العناج، وهو حبل يشد به الدلو للقول المحكم المحسوب، و(عناج) اسم ليس مؤخرا.

الثانية: جاءت الاستعارة فيها اسما لإن مؤخرا، كما فى قول نبى الله موسى عليه السلام: وإن بالحجر ندبا ستة أو سبعة، استعيرت فيه (الندب) جمع (ندبة) وهى أثر الجرح فى الجلد لأثر ضرب الحجر بالعصا. و(ندبا) اسم إن مؤخر، وكما فى قولهم إن فى رأسه نعرة أى كبرا، الاستعارة فى (نعرة) وهى اسم إن مؤخر.

---

(١) مصطلح حديث فى لسان العرب عام، وليس قاصرا على ما يتعلق بالرسول ﷺ.

وهاتان الصورتان داخلتان فى حيز المبتدأ؛ لأن الناسخ لم يمح أثر المبتدأ فى السياق، أو يلغ دوره المنوط به فى الكلام.

الاستعارة فى لسان العرب أوسع دائرة من المواضع المحددة:

لحظت أثناء تناولى للاستعارات الأصلية التى سبق بيانها أن صاحب لسان العرب ساق بعضا منها، ليس داخلا فى دائرة المواضع التى عرفناها، وعهدناها، وهى تتمثل فى ثلاث صور:

إحداها: أن تقع الكلمة التى فيها الاستعارة (منادى) فقد جاء فى لسان العرب «... وفى حديث على - رضى الله عنه - أنه مر بعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد مقتولا يوم الجمل فقال لهفى عليك يعسوب قريش، يعسوب قريش سيدها شبهه فى قريش بالفحل فى النحل»(١).

فقوله (يعسوب قريش) منادى حذف منه الأداة، وهى استعارة سماها تشبيها باعتبار الأصل(٢).

ومثل هذه الاستعارة التى قعت (منادى) ما جاء فى قول صاحب اللسان «... وفى حديث أبى بكر وأضيافه قال لابنه عبد الرحمن يا عنتر هكذا جاء فى رواية، وهو الذباب شبهه به تصغيرا له وتحقيرا»(٣).

«والعنتر والعنترة كله الذباب»(٤).

فقوله (عنتر) منادى استعار (عنتر) وهو الذباب، لابنه تحقيرا له، كما قال صاحب لسان العرب، وتلك الاستعارة سماها تشبيها، وقد وضحتها بالتفصيل سابقا.

ثانيتها: أن تقع الاستعارة صفة فقد ذكر صاحب لسان العرب فى أحد المواضع أن (حموشة الساقين) أى دقتهما تستعار لدقة البدن كله، وساق شاهدا على ذلك ما جاء فى بعض الأحاديث فقال: «وفى حديث الزنا فإذا رجل حمش الخلق» ثم قال: «استعاره من الساق للبدن كله أي دقيق الخلقة»(٥).

---

(١) لسان العرب: ٤/٢٩٣٦ (عسب).
(٢) سبق بيان هذا الشاهد بالتفصيل فى مكانه من هذا العمل.
(٣) لسان العرب: ٤/٣١٢٢ (عنتر). (٤) المصدر نفسه والموضع.
(٥) لسان العرب: ٢/٩٩٦ (حمش). والنهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير: ١/٤٤١ (حمش).

فقوله (حمش الخلق) صفة لرجل، وهذه الصفة جاءت استعارة.

الثالثة: أن تقع الاستعارة حالا أو مفعولا لأجله فقد قال صاحب اللسان: «الرفاهة والرفاهية رغد الخصب، ولين العيش... وأرفههم الله ورفههم، ورفهنا نرفه رفها... واستعار لبيد الرفه فى نخل نابتة على الماء فقال:

يشربن رفها عراكا غير صادرة فكلها كارع فى المـــاء مغتمر»[1]

يقول إن هذه النخل تجاور ماء كثيرا فهى ترتوى منه كما تشاء، وتتقلب فى تلك الرفاهية، والعيش الهنىء[2].

فكلمة (رفها) كما بدا لى مصدر وقع حالا من الفاعل فى (يشربن) أو مفعولا لأجله. وفيها الاستعارة -كما أبان صاحب لسان العرب.

فإن كان ما لحظته، وفهمته صوابا يكون من حق هذه المواقع الاستعارية الثلاثة أن تضم إلى أخواتها المعينات، وتقترن بها، وتنتظم فى سلكها.

* * *

---

(١) لسان العرب: ٣/١٦٩٨ (رفه).

(٢) سبق شرح هذا البيت فى موضعه من هذا العمل.